وزارة المعارف العمومية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع و العشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

علي محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦هـ - ١٩٤٧ م

سورة الحاقة مكية

وهى إحدى وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَاقَّةُ ﴿١﴾ مَا الْحَاقَّةُ ﴿٢﴾

﴿ الحاقة ﴾ تأنيث الحاق ، اسم فاعل من حق فلان الأمر بمعنى حققه وأوجبه وأثبته . وإذا كان معنى (الحاقة) ما ذكرنا كان لها موصوف ومفعول محذوفان . والتقدير الساعة الحاقة لأمور الحساب ، ولما يتلو ذلك من الثواب والعقاب ، فتلك الساعة — وهى يوم القيامة — تحقق كل ذلك وتثبته بحيث لا يعود يقع فيه ريب للمرتابين ، ولا تعلة للمكذبين . ويقول الرجل لأصحابه إذا بلغهم خبر فلم يستيقنوه ، "أنا أُحق لكم هذا الخبر" أى أعلمه لكم ، وأقف على حقيقته .

وكما أن [حق] الثلاثى يكون متعديا بمعنى حقق يكون لازما بمعنى وجب وثبت وتحقق فى نفسه ، ومنه (حقت كلمة ربك) و (حقت عليهم كلمة العذاب) أى وجبت وثبتت ، ويجوز تفسير (الحاقة) فى الآية بذلك ، ويكون معناها الساعة الثابتة المتحققة الوقوع .

وقد أصبحت (الحاقة) اسما من أسماء يوم القيامة ، ولم يعد يلاحظ فيها موصوفها ، كما أن (القارعة) و (الواقعة) و (الطامة) و (الصاخة) كذلك ، فكل هذه الأسماء كانت أوصافا ، ثم غلب استعمالها أسماء بل أعلاما ليوم القيامة .

وقوله ﴿ما الحاقة ؟﴾ استفهام يقصد به تهويل تلك الساعة التى سميت الحاقة ، كأنها لغرابة أمرها ، وفظاعة هولها أصبحت النفس من دهشتها تتساءل عنها قائلة : "ما هى تلك الحاقة ؟" وهذا كما إذا فاجأ المرء مصاب فادح فإنه يلتفت إلى جليسه قائلا : ما هذا ؟ مع أن المصاب يكون معلوما لهما ، بل يكون أحيانا تحت مواقع أبصارهما .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾

وكان الظاهر أن يقول "ما هى ؟" مكان (ما الحاقة ؟) لكنه عدل عنه إلى الاسم الظاهر لزيادة التهويل به فوق التهويل بالاستفهام . أما إعرابه : فالحاقة مبتدأ ، وقوله (ما الحاقة) ما استفهامية خبر مقدم والحاقة مبتدأ مؤخر ، والجملة منهما خبر للحاقة الأولى ، والحاقة الثانية بمنزلة الضمير والكناية عن الحاقة الأولى ، كأنه يقول "الحاقة ما هى؟" كما يقال : " زيد ما زيد ؟ " أى إن أمره عجيب ، ومثل الآية فى العدول إلى الظاهر قول أم زرع فى حديثها المشهور "أبو زرع وما أبو زرع؟ " " أم أبى زرع فما أم أبى زرع؟ " " ابن أبى زرع فما ابن أبى زرع ؟ " وهكذا ، والمعنى أنّ أمر ذلك عجيب ، وشأنه مستغرب .

ثم عاد الوحى فاستفهم معجّبا من أمر الحاقة على أسلوب أبلغ فقال : ﴿ وما أدراك ما الحاقة ! ! ﴾ كأنه يقول : إنه لا أحد يدرى أمرها ، أو يقدر أن يحيط وهمه بما هى عليه من الفخامة ، وجلالة الشأن ، وإذا كان الخطاب فى (وما أدراك) لمطلق إنسان ، الشامل للمكذبين للقيامة — يكون فيه تعريض بالمكذب ، وأنه يكذب بما لا يعلمه ، ولا يقدر على اكتناه أمره . والاستفهام فى هذا الأسلوب جار على عادة العرب فى التخاطب ، وإلا فإن العليم الخبير سبحانه وتعالى لا يجهل حتى يستفهم .

قبل أن يأتى الوحى على وصف تلك الساعة وأخبارها ، وما يكون فيها لفريق الأبرار والفجار ذكر للمخاطبين موجزا من أخبار بعض الأمم الماضية الذين كذبوا بها فهلكوا ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين بها من مشركى العرب ، فقال : ﴿ كذبت ثمود وعاد بالقارعة ﴾ وكان الظاهر أن يقول مكان (بالقارعة) — : (بها) ، أى بالحاقة ؛ لأن الحديث عنها ، وتكذيب عاد وثمود إنما هو بها ، لكنه عدل عن ضميرها إلى اسمها الظاهر توصلا إلى نعتها بوصف آخر غير (الحاقة) وهو أنها (القارعة) التى تقرع القلوب بهجومها ، ومفاجأة أهوالها .

و [القرع] ضربُ الشىء الصُّلب والنقرُ عليه بشىء مثله ، يقال : قرع البابَ والناقوس ، وقرع رأسَه بالعصا ، وقرع السهمُ الهدفَ ، وهكذا ، وإذا فجأ الهولُ القلبَ اضطرب ووجب كأنّ قارعا قرعه ، على أنّ الساعة كما تقرع القلوب والنفوس بالإفزاع ، تقرع الأرض والسموات بالدك والنسف والانصداع ، فهى القارعة بالمعنى الأعم الأشمل .

و (ثمود) و (عاد) من قبائل العرب البائدة ، وكل هـذه القبائل عند العرب من نسل إرَم ، فهم إرميون أى آراميون كما نسميهم اليوم . ويقولون "عاد إرم" و "ثمود إرم" تمييزا لهم بهذا الوصف عن غيرهم ، أو كشفا لهم ، فتعرف به نسبتهم .

وفى التوراة أنّ عادا وثمود تنتسبان إلى آرام بن سام بن نوح عليه السلام ، فثمود جدّ قبيلة ثمود هو ابن "جاشر بن آرام" ويسميهما مؤرخو العرب " كاشر بن إرم" ، وعاد جدّ قبيلة عاد هو ابن "عوص بن آرام" .

وكانت القبيلتان تسكنان اليمن ، ثم إنّ ملوكها الحميريين طردوا ثمود منها فسكنت الحجر من بلاد الحجاز فى وادى القرى بطريق الحاج الشامى إلى مكة ، وتمرّ بها السكة الحجازية وهى مدائن صالح المشهورة ، ذات البيوت المنحوتة فى الجبال نحتا فى غاية الإحكام وحسن الصنعة ، وكان اليهود يسكنونها قبل ظهور الإسلام .

وقد أرسل الله إلى قوم ثمود سكان هذه المدائن نبيا منهم ، وهو سيدنا صالح عليه السلام ، وكان صالح فيما يقال على طريقة سيدنا المسيح ، يمشى حافيا ، ولا يتخذ حذاء ، ويعيش متقشفا فلا يتبوأ مسكنا ولا بيتا ، ثم إن قومه كذبوه ، وعقروا ناقته ، وأُغرقوا فى الكفر والجحود حتى أهلكهم الله ، وقد قص تعالى علينا أخبارهم فى غير موضع من كتابه ، وذكر فى هـذه السورة موجزا من طريقة هلاكهم .

أما أبناء عمهم (عاد) فكانوا يسكنون الأحقـاف من بلاد اليمن ، والحقف فى اللغة الرمل المستطيل المعوج ، وهذه الأحقاف كانت ممتدّة فى بلاد حضرموت بين عمان شرقا ، وبلاد اليمن غربا ، وساحل بحر العرب جنوبا . ويوجد فى تلك البلاد على كثرة رمالهـا جبال وأودية من أخصب بلاد الله ، ذات مياه وأشجـار وزروع ، لا سيما فى نواحى حضرموت والشِّحْر من بلاد اليمن ، وكانت "عاد إرم" تسكن فى تلك الجهات ، وكانوا فيما يقال نحو ثلاث عشرة قبيلة فطغوا وبغوا ، فأرسل الله إليهم هودا عليه السلام ، فحذرهم وأنذرهم ، فكذبوه وتمردوا عليه ، ثم كان من أمر هلاكهم أخيرا ما قصه الله علينا فى هذه السورة .

ويقول علماء الآثار اليوم[1] إنّ مؤرخى اليونان ذكروا فى جملة قبائل اليمن حوالى ميلاد المسيح قبيـلة يكتبونها بلغتهم هكذا (Adramitai) أى العادراميون ، ولا غرو أن يكون العادراميون هؤلاء هم الذين سماهم العرب "عاد إرم" أو "عاد آرام" .

(١) ملخص من كتاب (العرب قبل الإسلام)

قالوا : وأما قبيلة ثمود فذكرت فى جملة البلاد التى غلبها "سرجون" ملك أشور سنة ٧١٥ قبل المسيح ، وكانت بجوار مكة فى الجهة الجنوبية من مدائن صالح ، وذكر مؤرخو اليونان ثمود حوالى زمن المسيح و بعده وجعلوا منازلها المدائن المذكورة ، ويسمونها ثموديني (Thamudeni) .

ودخلت " مدائن صالح " فى حوزة ملوك بطرا " أو البتراء وهى وادى موسى" قبل المسيح وقد وجد على أطلال المدائن كتابات ونقوش تدل على هذا المعنى ، ودونك هذا المثـال من تلك الكتابات بالحرف النبطى وتاريخه حوالى عهد المسيح :

"هذا القبر الذى بنته كمكم بنت وائلة بنت حرم وكلبية ابنتها لأنفسهن وذريتهن ، فى شهر طيبة من السنة التاسعة لحرث ملك النبطيين ، محب شعبه ، فعسى ذو الشرى وعرشـه [؟] واللات وعمند ومنوت وقيس تلعن من يبيع هـذا القبر أو يشـتريه أو يرهنه أو يخرج منه جثة أو عضوا أو يدفن فيـه أحدا غير كمكم وابنتها وذريتها ، ومن يخالف ما كتب عليـه فليلعنه ذو الشرى وهبـل ومنوت خمس لعنات و يغرم الساحر [؟] غرامة مقدارها ألف درهم حارثى ، إلا من كان بيـده إذن من يد كمكم أو كلبية ابنتها بشأن هـذا القبر ، والإذن المذكور يجب أن يكون صحيحا ، صنع ذلك وهب اللات بن عبد عبادة اهـ " .

واللغة المنقوشة على أطلال مدائن صالح آرامية مثل لغة "بطرا" النبطية ، وكأن ثمود سكان هذه المدائن كانوا يستعملون لغة سادتهم النبطيين وكتابتهم أحيانا ، وإلا فإن لغة ثمود الأصلية هى لغة بلادهم " اليمن " التى هاجروا منها ، أعنى اللغة الحميرية ، وكتابتهم بالحرف المسند الحميرى لا النبطى ، وقد عثروا على فروع من القلم المسند فى عدة أماكن من بلاد الحجاز ، أهمها ما وجد فى " العلاء " جنوبى مدائن صالح ، أوائل الميلاد . من ذلك :

(١) كتابة سموها " لحيانيـة " مذ رأوا فيهـا أسماء ملوك لحيـان الذين يظن أنهم بقايا قبيلة ثمود .

(٢) كتابة سموها " ثمودية " وهى تختلف عن " اللحيانية " بعض الاختلاف .

(٣) كتابة سموها " صفوية " وهى التى وجدوها فى جبل الصفـا بحوران .

فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾

[الطاغية] من الطغيان : الافراط ومجاوزة الحد . وهى صفة لمحذوف . كأنه يقول : أخذوا بأخذةٍ من أخذات العذاب جاوزت كل حد فى عنفها وشدتها .

وقد كانت تلك الأخذة صيحة من السماء : امتلخت[1] قلوبهم ، وأهمدت نفوسهم ، بدليل ما جاء فى سورة هود (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين) ويعنى بالذين ظلموا قوم صالح عليه السلام . والكتاب لم يعين هذه الصيحة ، ولم يفصل أمرها بأكثر من وصفها بالطغيان ومجاوزة الحد كما قال فى آيتنا التى نفسرها . وقد قال فى سورة الشعراء (فأخذهم العذاب) ، وفى سورة الفجر (فصب عليهم ربك سوط عذاب) ، وفى سورة الشمس (فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها)، ومعنى (دمدم عليهم) أهلكهم، ومعنى (سوّاها) سوّى قبيلة ثمود بالأرض ودمرها ، أو سوّى بين آحادها فى لحاق العذاب بهم، فلم يفلت منهم أحد .

أما السبب الذى أخذ به قوم صالح هذه الأخذة فهو تكذيبهم لنبيهم ، ومخالفتهم أمر الله فيما امتحنهم به ، من أمر الناقة ؛ فقد أمرهم أن لا يمسوها بسوء ، ثم يكون لهم شرب، أى يوم يشربون فيه من المورد كفايتهم ، ولها هى يوم تشرب فيه وحدها ، على أن يملئوا فى يومها كل وعاء وإناء لهم من لبنها .

ثم إن جهلة القوم برموا بالناقة وشربها،وحرمانهم الماء فى يومها ، فانبعث أشقاهم فعقرها ؛ ولم يأخذ قومه على يده ويمنعوه من جرمه ، فنسب العقر اليهم كلهم؛ لرضاهم به وسكوتهم عليه ، فعمهم العذاب ، وأخذوا بهذه الأخذة الطاغية التى جاوزت الحدّ المعتاد فى القوة والاشتداد ، كما جاوزوا هم الحدّ فى المخالفة والعناد .

هذا ذنب ثمود وعذابهم . ﴿ وأما ﴾ أبناء عمهم ﴿ عاد ﴾ — وهم الذين يسمون أيضا " عاد إرم" و" إرم ذات العماد " ، والعماد الأبنية الرفيعة ، وسيأتى وصف أبنيتهم ، أو هو كناية عن قوتهم ومنعتهم وعلو جانبهم ، وقلنا إن مساكنهم الأحقاف من بلاد حضرموت — فقد وصف الله فى غير ما موضع من كتابه مبلغ طغيانهم وفجورهم وتكذيبهم لنبيهم هود عليه السلام، واستخفافهم به ، وبالأوامر الإلهية التى كان يبلغهم إياها ، وهم الذين كانوا يقولون له : (وما نحن بتاركى آلهتنا عن قولك) مذ كان يقول لهم : (يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .

---

(١) (امتلخت) انتزعت .

وقد انضم إلى كفرهم هذا بالله مآثم ومناكر غاية في البشاعة : من ذلك أنهم كانوا يبنون قصورهم على قارعة الطريق وفوهات المعابر، وكانوا يتنافسون في بناء تلك القصور وتشييدها حتى يصبح القصر آية وعلامة على عظمة صاحبه ومبلغه من الغنى والثروة ، وتفوّقه على أبناء عشيرته ، فكانت تلك القصور وسيلة للمباهاة والتفاخر وتأريث الفتن والعداوات ، ولم يكن لهم في تلك القصور عمل سوى العبث واللعب والإفساد في الأرض . فكان بعضهم يتخذ في أعلاها أبراجا للحمام ، ويضيع الوقت سدى في إطارته ، وإيذاء الجيران به . وكان آخرون يطلون من قصورهم على الغادين والرائحين ، من تجار وأكارين ، فيعبثون بهم ، ويدبون بالأذى إليهم . وكان بعضهم يرصد الذين يفدون على نبيهم هود للإيمان به ، وتلقى الهداية من قبله ، فيتناولونهم بأنواع السباب والشتائم، ويحولون بينهم وبين ما يريدون من الإيمان بهود عليه السلام . وكل ما ذكرنا هو عبثهم الذي كان يوبخهم عليه سيدنا هود مذ يقول لهم : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون ؟) ثم يقول : (وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون) أي تبنون المباني المتينة من دور وقصور وحصون وصهاريج للماء حاسبين أنكم تعيشون إلى الأبد ولا يدركم الموت وأنتم في تلك القصور المشيدة ، وتنجون من عذاب الله على فظائعكم وآثامكم ؟؟ وأشد ما كان يوبخهم عليه نبيهم أنهم كانوا إذا غضبوا على أحد من الناس بادروا إلى تعذيبه ، والإيقاع به ، قتلا بالسيوف، أو جلدا بالسياط، من غير تفكير ولا تدبر في العواقب ، وقد لا يكون للمسكين ذنب يستحق عليه كل هذا العقاب ، فكان نبيهم هود يقول لهم معدّدا فظائعهم (وإذا بطشتم بطشتم جبارين) .

هذا ما قصه الله علينا من خبر هذه الأمة العاتية . فلا بدع إذا أنزل بها شديد عقابه ، وأليم عذابه ، مذ قال تعالى واصفا ذلك في كتابه ﴿ وأما عاد فأهلكوا ﴾ الآية . و[الصرصر] وصف للريح يجمع بين شدة صوت هبوبها في الآذان ، وشدة لذع بردها على الأبدان ، فإن من معاني هذه المادّة [الصّرّ] الصوت الشديد : يقال : " صَرّ صرا وصريرا " ، والبرد الشديد : يقال " ريح صر " إذا كانت شديدة باردة . وقوله ﴿ عاتية ﴾ العتو في الرجال مجاوزة الحد في الكبر والبطش وقسوة القلب . والعتو في الرياح مجاوزة الحد في العصف والهبوب وقهر من أراد التوقي منها بحيلة ما ، فهي تدمر عليه مكمنه ، أو تنتزعه منه بلا رحمة ، وفوق ذلك هي عقيم ، لا تلقح شجرا ، ولا تبقى ثمرا .

سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾

هـــذه الريح التى أرسلها الله على عاد ﴿ سخرها عليهم ﴾ أى سلطها وجعلها مسخرة لأمره فى إبادتهم ، والانتقام منهم مدة ﴿ سبع ليال وثمانية أيام حسومًا ﴾ . و[الحسم] فى اللغة يدور حول ثلاثة معان :

(١) القطع باستئصال . يقال "احسم العِرق" أى انزعه من أصله، ثم اكوه لئلا يسيل دمه .

(٢) الشؤم الذى لايكون معه خير . ومنه "أيام حسوم" أى تحسم الخير والبركة عن أهلها . وهو يرجع إلى المعنى الأول

(٣) الدؤوب فى العمل والأخذ فيه من دون فتور ، وهو يرجع إلى المعنى الأول أيضا ؛ لأن الذى يريد حسم العِرق مثلا يتابع العمل ويعيد الكى على العرق المرة بعد المرة حتى ينحسم .

وقد وصفت تلك الريح بكونها (حُسوما) وفسروها بكل هذه المعانى ؛ فهى قد استأصلت القوم وأبادت خضراءهم ، وكانت شؤما عليهم مذ استأصلتهم ، وكانت فى إلحاحها فى عملها وإبادتها دائبة متتابعة لم يعترها فتور ولا ونى .

ولفظ [حسوم] إما مصدر كجلوس ، وهو راجع إلى الريح أو إلى الأيام والليالى ، ويكون التقدير: بريح ذات حسوم أو أيام وليال ذوات حسوم . أو هو جمع حاسم كجلوس وشهود جمع جالس وشاهد ، فيكون حينئذ من صفة الليالى والأيام .

ويقال : إن هذه الأيام هى المعروفة إلى اليوم بأيام العجوز : تأتى فى أواخر فصل الشتاء ويشتد فيها البرد : أربعة من آخر شباط " فبراير " ، وثلاثة من أول آذار " مارس " . سميت بذلك — فيما زعموا — لأن عجوزا من قوم عاد المذكورين توارت من خوف الهلكة فى سرب فانتزعتها الريح الصرصر فى اليوم الثامن فأماتتها . وقيل إن اسمها " أيام العَجُز " أى أيام آخر الشتاء ؛ فإن عجز الشيء مؤخره . ثم حرفوها وقالوا " أيام العجوز " قال صاحب التاج : والصحيح أنها [عجوز] بالواو كما فى دواوين اللغة قاطبة .

و﴿ صَرْعى ﴾ مطروحين على الأرض . و﴿ أعجاز النخل ﴾ أصولها وجذوعها . و﴿ خاوية ﴾ نخرة فارغة : تأكّل جوفها وبلى وتفتت ؛ فما أسرع أن سقطت على الأرض .

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾

هذه الجذوع النخرة الممددة هنا وهناك هى مثال طبق لقوم عاد ، مذ صرّعتهم الريح الصرصر فى أفنية دورهم ، وعِراص مساكنهم ، مبعثرين مبددين . وإنك لو طفت معاهدهم ، وجست خلال دورهم ، بعد أن فعلت الريح بهم ما فعلت — ﴿فهل﴾ كنت ﴿ ترى لهم من باقية ﴾ أى بقية أفلتت من الهلاك ؟ أو المعنى هل كنت ترى لهم نفسا باقية لم يشملها الهلاك ؟ ؟

قوله : ﴿وجاء فرعون﴾ معطوف على قوله تعالى : (كذبت ثمود وعاد بالقارعة) . بعد أن وصف الوحى موجزا من هلاك عاد وثمود ذكر طوائف من أمم قديمة أخرى كان من خبرها وتكذيبها مثل ما كان من خبر عاد وثمود ، فعدّ منها (فرعون) ويعنى فرعون وقومه ، وقد اجتزأ عن ذكرهم بذكره ، إذ كان رئيسهم ، وولى أمرهم ، كما اقتصر عليه أيضا فى قوله : (هل أتاك حديث الجنود . فرعون وثمود) . ولو قال قائل : إن المراد بفرعون الفرعونيون أى المصريون القدماء المنسوبون إليه — ما كان مباعدا ، كتميم مثلا فإنه فى الأصل اسم لجد القبيلة ، ثم غلب عليها كلها .

وقوله : ﴿ومَن قَبله﴾ قبل بفتح القاف وسكون الباء ، أى وجاء أيضا من الأمم من كان قبل فرعون وسبقه فى الزمن . ولم يعين الكتاب لنا هذه الأمم السابقة ، وما علينا ألا نعلمهم ونُعْنَى بتعيينهم . وقد مثل لهم بعض المفسرين بقوم نوح وقوم نمرود .

وقرأ بعض القراء (ومن قِبَله) بكسر القاف وفتح الباء بمعنى جاء فرعون والذين هم عنده وجهته ، يعنى جنوده وأتباعه المقيمين حيث أقام ، والراحلين حيث رحل . يقال " أتانى من قبل فلان رسالة " أى من عنده أو من جهته . و " لى قبل فلان دين " أى عنده . ويشهد لهذه القراءة قراءة عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب (وجاء فرعون ومن معه) ، ولا يكون معه إلا جنوده وأتباعه ، وهو معنى (ومن قِبله) . ويشهد لها أيضا قراءة أبى موسى الأشعرى (وجاء فرعون ومن تلقاءه) و [تلقاء] بمعنى [لقاء] فى الأصل ثم توسع فيها فصارت بمعنى [عند] و[جهة] .

﴿ والمؤتفكات ﴾ جمع المؤتفكة أى المنقلبة ، وموصوفها محذوف ، أى القرى المنقلبات أو الأراضى المنقلبات . يقال ائتفكت البلدة بأهلها إذا انقلبت ، ومنه الإفك ، بمعنى الكذب لأن الكاذب يقلب الحقيقة ، ويظهرها فى غير صورتها الصحيحة . والمراد بالمؤتفكات مدن قوم لوط التى انقلبت عليهم ، وصار عاليها سافلها ، بما كانوا يرتكبون من الفجور والمنكر . والذى جاء بالخاطئة أهل المؤتفكات لاهى ، لكن تجوزبها عنهم اعتمادا على فهم السامع على حد قوله تعالى (واسأل القرية) أى أهلها .

فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً (١٠)

ويقال إن البحيرة التى تسمى اليوم بحيرة لوط والبحر الميت ـــ تغمر الأماكن التى كانت قائمة فيها قرى قوم لوط، وهى خمس: سدوم، وعموره، وأدمة، وصبو ييم، وبالع وتسمى صوغر. ولما أراد الله إهلاك هذه القرى أُمطرت بحُمم النار والكبريت، وتغشتها سحب من الأبخرة المنبعثة من جوف الأرض، ثم تحللت تلك الأبخرة إلى ماء كريه الطعم، استنقع فى ذلك الغور، وتكونت منه تلك البحيرة .

[والخاطئة] صفة لمحذوف، أى بالفعلة الخاطئة، أو الأفعال الخاطئة، أى ذات الخطيئة والإثم والذنب: يقال: خطئ، إذا أثم وأذنب فهو خاطئ، وقال بعض أهل اللغة لا يكون ذلك إلا عن عمدٍ وتصميم، بخلاف أخطأ فهو مخطئ، فإنه الذى يفعل الشر غير متعمدٍ له، والخطأ من أخطأ، والخطيئة من خطئ .

خطئ . يخطئ خاطئ
أخطأ يخطئ مخطئ

وقوله ﴿ أخذة رابية ﴾ أى شديدة زائدة فى شدّتها : من ربا إذا زاد ونما وتضاعف عدده أو حجمه، فهذه الأخذة التى نزلت بقوم فرعون مذ أُغرقوا فى اليم، وبقوم لوط مذ قلبت بهم قراهم وتراكمت عليها الحمم وحجارة الكبريت وسحب الأبخرة ـــ كانت ولا ريب أخذة زاد فيها العذاب ونما، واشتدّ بها الكرب على الفريقين وطما .

ولا حاجة إلى ذكر ما جاء به قوم فرعون وقوم لوط من الخطايا والآثام، وعصيان موسى ولوط عليهما السلام، ووصف ما كان من أمرهم، والعذاب الذى نزل بهم، فهو على الإجمال معروف، وقد ذكر فى التنزيل أكثر من مرة، غير أنا نذكر موجزا من تاريخ حياة "لوط" حسبما ورد فى الأسفار القديمة : قالوا : هو ابن حاران أخى إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد هاجر مع عمه إبراهيم من بلاد ما بين النهرين إلى أرض الميعاد "فلسطين"، وبعد رجوع إبراهيم من مصر كانت مواشيه ومواشى لوط قد ازدادت جدّا، وكثر الخصام بين رعاتها، فاقترح إبراهيم على لوط أن يفترقا منعا للنزاع والخصام، وخير إبراهيم لوطا فى الأرض التى يريدها، فاختار دائرة نهر الأردن بقرب سدوم وعمورة، ثم غزا "كدرلاعومر" ملك عيلام هذه المدن، وأذل ملوكها. وأسر طائفة من سكانها، كان فيهم لوط عليه السلام، وأفلت من القوم من أخبر سيدنا إبراهيم بهذه النازلة، فأسرع بثلاثمائة وثمانية عشر من أهله وحشمه عدا حلفائه الآموريين وجدّ فى إثر الغزاة حتى أدركهم بالقرب من بانياس فى قضاء القنيطرة من ملحقات دمشق، فنازلهم

إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾

وشتت شملهم، ثم تبعهم إلى "صوبا" فى محل قرية "المزّة" على مقربة من دمشق كما حققه بعضهم وهناك استردّ الأسلاب، وأنقذ الأسرى ولوطا ابن أخيه، ثم كان ما كان من أمر القرى الخمس وتدمير الله لها ، فانتقل لوط إلى جبال " موآب " فتوطنها ، ثم كانت من بعده لنسله الموآبيين والعمونيين .

قص الوحى علينا أخبار الأمم المكذبة المذكورة ، وحلول العقوبة الإلهية بها ، ليكون ذلك زاجرا للمكذبين من قريش ، وقد قدّم هذه الأخبار بين يدى ذكر يوم القيامة ، وما يحدث فيه من الأهوال ، بعد أن افتتح السورة بوصف يدل على هول ذلك اليوم ، وعظم أمره ، وكانت تلك الأخبار تذكر على نسق واحد، لكنه لما انتهى الحديث إلى خبر أمّة نوح عليه السلام وهلاكها بالطوفان خالف فى الأسلوب ، ولوّن الخطاب بلون آخر ، وبدل أن يقول مثلا : إنّ قوم نوح كذبوا فأغرقوا بالطوفان — وجه الخطاب إلى مكذبى قريش الذين هم من سلالة الناجين من الغرق مع نوح ، مذكرا لهم بنعمته على آبائهم . ويكون فى إيراده الكلام على هذا الأسلوب قد جمع بين خبر الفجار المغرقين، وخبر الأبرار الناجين ، كما قرن بين تحذير مكذبى قريش أن يصيبهم ما أصاب أولئك المغرقين ، وبين الامتنان عليهم بحمل آبائهم فى السفينة ، فكان ذلك سببا لنجاتهم ، وانتشارهم فى الأرض، وبثهم ذرياتهم فى جنباتها ، وكان مكذبو قريش المخاطبون — من هذه الذريات ، أفما كان الواجب عليهم أن يدعوا العناد والتكذيب ، ويشكروا الله الذى مهد لهم سبيل الوجود بهذا التدبير العجيب ؟ وقد خالف فى أسلوب الكلام على هذه الصورة لينتقل بذلك إلى البعث وأحواله ، ووصف يوم القيامة وأهواله .

ومعنى ﴿طغى الماء﴾ طما وارتفع وتجاوز حدّه المعروف وطاف على الأرض اليابسة فغمرها ، وكان منه الطوفان الذى أباد الله به أهل ذلك الزمان .

وقوله ﴿حملناكم﴾ أى أنتم يا معشر قريش المخاطبين اليوم ، وإنما جعل حمل أجدادهم حملا لهم ؛ لأن أولئك الآباء كانوا جرثومة لهؤلاء الأبناء ، ففى حفظ الجرثومة حفظ لقوتها النامية بل حفظ لما فى طيها من الذرارى الكامنة ، وهذه الذرارى العاقلة يجب عليها أن تشكر للذى حفظ أصلها ، وصان جرثومتها من الضياع والفناء ، فكان ذلك سببا لوجودها وتمتعها بالحياة والنماء و﴿الجارية﴾ السفينة .

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿١٣﴾

وقوله ﴿ لنجعلها ﴾ أى لنجعل السفينة ، وقصتها العجيبة ، أو لنجعل تلك الفعلة ، وهى نجاة الأبرار ، وهلاك الفجار ، ﴿ تذكرة ﴾ عبرة وعظة تحملكم أيها المكذبون على التوبة والإنابة وترك التكذيب . ﴿ وتعيها أذن واعية ﴾ أى ولأجل أن تحفظ تلك التذكرة وما تتضمنه من الموعظة والعبرة — أذنٌ حافظة لها . والمراد بحفظها تعقلها وتدبرها والانتفاع بها فى اجتناب الفسوق والعصيان ، واتباع سبيل أهل التقى والإيمان . وقد أراد بالأذن صاحبها لا الجارحة نفسها ، ونكرها وجعلها واحدة للإشارة إلى أن الآذان التى تعى الحكم والمواعظ وعى تدبر وانتفاع قليلة بالنسبة إلى التى لا تعى ولا تتدبر . على أن فى تنكيرها المفيد لتقليلها إيذانا بتعظيم شأن تلك الآذان القليلة وتفخيم أمرها ، وأنها على قلتها هى الكثيرة الطائلة والقوة العاملة ، على حد قول القائل :

يا خالدا يا خالدا ألفا وتدعى واحدا

هذا هو وصف يوم القيامة الموعود به ، والمرموز إليه من أول السورة بقوله تعالى (الحاقة ما الحاقة) ، والذى كذبت به تلك الأمم ، فأهلكها الله جزاء تكذيبها ، وحذر قريشا أن تسلك مسلكها فى التكذيب ، فيصيبها ما أصابها .

[والنفخ فى الصور] فى لسان الشرع قد يكون تمثيلا وتصويرا لبعث الأموات وانبعاثهم من أرماسهم بسرعة تحكى سرعة المجتمعين وقد هُتِفَ بهم من بوق عظيم ، وهذه (النفخة الواحدة) هى النفخة الثانية أو الدعوة الثانية التى يكون من أثرها صعق الخلائق وخمود حياتها ، وخراب الكائنات ووقوف حركاتها[1] ، وإلا فإنه يسبقها نفخة أولى أو دعوة أولى يكون من أثرها ذعر الخلائق واضطرابهم ، واختلاط حابلهم بنابلهم . ونحن نؤمن بذلك كله حسبما ورد

(١) روى عن ابن عباس أن المراد بهذه النفخة النفخة الأولى التى يكون عندها خراب العالم ، وعن ابن المسيب ومقاتل : أنها النفخة الآخرة . وقد اقتصر ابن جرير على الأول ، ورجحه الفخر الرازى والآلوسى : قال الآلوسى : "والأول أولى ، لأنه المناسب لما بعد ، وإن كانت الواو لا تدل على الترتيب ، لكن مخالفة الظاهر من غير داع مما لا حاجة إليه" وقال الفخر الرازى : "فإن قيل : لم قال بعد ذلك : يومئذ تعرضون — والعرض إنما يكون عند النفخة الثانية — قلنا : جعل اليوم اسما للحين الواسع الذى تقع فيه النفختان والصعقة والنشور والوقوف والحساب ، فلذلك قال : يومئذ تعرضون ، كما تقول : جئته عام كذا ، وإنما كان مجيئك فى وقت واحد من أوقاته" . وقد جرى المؤلف فى كلامه على اعتبار النفخات ثلاثا ، وسيأتى الكلام فيه . المصحح .

﴿ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾
وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾

فى الشرع . أما التعمق والتطلع لمعرفة ما وراءه فهذا ما لم نكلفه رحمة بنا ، وإن البحث فيه مضلة ، والسؤال عن كنهه مخرقة .

﴿ وحملت الأرض والجبال ﴾ أى رفعتا وسيرتا ، كما قال تعالى فى سورة التكوير : (وإذا الجبال سيرت) . والتثنية فى قوله (دكتا) باعتبار أن (الأرض) و (الجبال) مجموعتان متمايزتان مجموعة الأراضى المنبسطة التى هى السهول، ومجموعة الأراضى المرتفعة التى هى الجبال والحزون . فقوله (دكتا) أى هاتان المجموعتان ، سهولا وحزونا هدتا وسويتا على تسطيح واحد .

و[الدك] والدق متقاربان،غير أن الدك أبلغ ، وهو أن تأتى إلى حائط أو كومة مرتفعة مختلطة بحجر ومدر وتراب مثلا فتضربها بعضها ببعض،وترصها رصا منكرا بحيث يتكون منها بقعة ممهدة السطح : لا تضاريس فيها ولا اعوجاج ، ولا ارتفاع ولا انخفاض . وأحسب أن الباعة والتجار كانوا يفعلون ذلك من التسوية والرص والدك فى البقعة التى يفرشون عليها بضائعهم فى جنبات الطريق ، يعرضونها تحت أنظار المارة والمشترين ، وكانوا يسمونها دكانا ، ثم شاعت هذه الكلمة حتى صارت تطلق على المكان الذى يبيع فيه التاجر أشياءه ولو لم يكن للدك فيه أثر .

وقوله ﴿ دكة واحدة ﴾ أى أصبحت الأرض والجبال بعد دكهما كتلة واحدة لا ميزة فيها لأرض على جبل ، ولا لجبل على أرض ، أما هذان : الرفع والدك اللذان وصفناهما فبأية قوة كانا؟لم يذكر الله فى كتابه إلا أنهما حصلا،وبديهى أن ذلك يكون بقدرة الله مباشرة من غير سبب ظاهر ، أو بواسطة سبب أو ناموس ، الله أعلم بما يكون من ذلك .

وقوله ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة ﴾ أى ويوم أن يقع ما ذكر من النفخ والحمل والدك تكون قد وقعت الواقعة ، وحقت الحاقة ، وقامت القيامة التى كنتم تكذبون بها أيها المكذبون .

ثم ذكر الوحى بقية ما يقع فى ذلك اليوم من تخريب العالم العلوى بعد أن ذكر تخريب العالم السفلى فقال : ﴿ وانشقت السماء فهى يومئذ واهية ﴾ . وانشقاقها كناية عن انصداعها ، وتبدل أوضاعها وذلك بأن يسلب الله منها ذلك الناموس الأعظم الذى كان يمسكها،ويربط بين أجزائها، فلا يبقى جزء منها مستقرا فى مكانه ، ولا كوكب من كواكبها على المعهود من حركته ودورانه ، وهذا معنى (واهية) : بالية متداعية لا تماسك فيها .

وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾

وإذا كانت أرضنا على صغرها وحقارة أمرها بالنسبة إلى العالم العلوى — قد خلق الله فيها أنواعا من المخلوقات ، وصنوفا من الأحياء التى أرقاها الإنسان — أفيدع سبحانه تلك السموات العلى مجردة عن خلائق يذرؤهم فيها ، يصلون له ، ويمجدون اسمه؟ ؟ كلا، وقد ورد الشرع بتسمية هذه الخلائق السماوية " ملائكة " .

فكيف تكون حال هذه الملائكة فى ذلك اليوم : يوم القيامة وقد انشقت السماء التى تقلهم ، وتقطعت أوصال الأجرام التى تضمهم ؟ ؟ قال تعالى : ﴿ والملك على أرجائها ﴾ .

وقوله ﴿ والملك ﴾ أى جماعة الملائكة ؛ فأل فيه للاستغراق . وضمير : ﴿ أرجائها ﴾ يرجع إلى السماء التى قد تصدعت وتشققت . والمعنى أنه إذا لم تعد السماء بعد وهيها وانشقاقها صالحة لأن تكون مثابة وأمنا لأولئك الملائكة — انتشروا هنا وهناك ، وانضووا إلى أرجاء السماء أى أقطارها وجوانبها . وخراب المكان وتزعزع أركانه لا يستلزم ألا تبقى له أرجاء ؛ فإن [الرجا] الناحية والجانب ، وهو لازم للمكان من حيث هو مكان .

لا تكاد نفس السامع تصل إلى هذه النقطة من وصف خراب العالم، وانتكاث فتله ، وتعاظم هوله ، حتى يتمثل لعينيه مبلغ السلطان الإلهى ، وعظمة ذى الجبروت الأزلى ، فيشهد إذ ذاك أنه الأول والآخر ، والباطن والظاهر ، وأن جميع ما تتابع على مسرح الوجود من هذه الخلائق لم تكن سوى خيال ، أو ظلال تقلصت إثر ظلال ، وإلى هذا يشير تعالى فى قوله ﴿ ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية ﴾ .

وضمير (فوقهم) يرجع إلى الملك الذى قلنا إنه إن كان مفردا فى لفظه فهو جمع فى معناه .

وهل المراد من كلمة [فوق] العلو والارتفاع ، أى أن ثمانية يحملون عرش الرب تعالى فى مكان فوق مكان الملائكة الذين على أرجاء السماء الواهية ؟ أم معنى (فوقهم) زيادة عليهم : كما تقول لآخر وقد أعطيته مئة درهم : "لك عندى فوقها مئة أخرى"؟ وقد تقول "لك عندى وراءها مئة أخرى" ، وكلاهما بمعنى غيرها وزيادة عليها ، وعلى هذا يكون معنى الآية : يحمل عرش الرب يومئذ ثمانية هم غير الملائكة الذين على الأرجاء وزيادة عليهم[1] .

(١) لا وجه لهذا القول فيما نرى ؛ فإن إضافة عدد معلوم إلى عدد مجهول يبقى معه المجموع مجهولا ، وحينئذ يخلو ذكر عدد الثمانية عن الفائدة . المصحح .

أو ضمير (فوقهم) يرجع إلى الثمانية الذين يحملون العرش ، وهو متأخر فى اللفظ لكنه متقدم فى الرتبة ، ويكون المعنى حينئذ : ويحمل عرش ربك يومئذ ثمانية فوقهم ؛ فهم يحملونه فوق رءوسهم أو على ظهورهم ، وليس معلقا فى أيديهم مثلا .

والمراد من الثمانية مسكوت عنه ؛ فهم ثمانية ملائكة ، أو ثمانية صفوف منهم ، أو ثمانية قوات إلهية أخرى تحمل عرش الرب فوق رءوس ملائكة الأرجاء ، أوتحمله زيادة عليهم ، بحيث يكون الجميع مشتركين فى الحمل — كل ذلك يحتمله لفظ الآية . فلا يحسن القطع بشىء منه .

أما [العرش] فى اللغة العربية فله معان غير السرير الذى تجلس عليه الملوك : منها العز والملك والسلطان ، ومنه قولهم "فلان ثل عرشه" يريدون زال ملكه ، وذهب سلطانه . وقال الشاعر : "تداركتما عبسا وقد ثل عرشها" ، أى ذهب عزها ، وضعف أمرها ، كما يقولون فى عكس ذلك "فلان توطد عرشه" ، أى استقر ملكه فى البلاد ، ورسخ سلطانه على العباد .

وحمل عرش الرب فى الآية قد يكون تمثيلا لكمال عزته سبحانه ، وانفراده بالجلالة والعزة والملك فى ذلك اليوم ، وأن تأثير هيبته سبحانه وتعالى فى القلوب فى ذلك اليوم يحكى تأثير ملوك الدنيا — وهم على عروشهم التى تحف بها جلة وزرائهم وكبار قوادهم — فى قلوب رعيتهم المستعبدين لهم . وأين هذا من ذاك ، ولله المثل الأعلى ، وإنما هو تنزل لأفهام المخاطبين ، وإفراغ للمعانى الغيبية فى قوالب ما ألفوه من تراكيب لغتهم العربيـة ، واصطلحوا عليه من أساليب التخاطب بينهم فيها ، وإلا فإن خالق الكون تقدست أسماؤه ليس جسما يحمل على العروش ، ولا مخلوقا تزدهيه الزخارف والنقوش .

وكل ماذكر فى هذه الآية من أمر تخريب الكائنات يوم القيامة ، ووصف أهواله ، وأحوال الملائكة فيه ، وما ينسب إلى الذات المقدسة الإلهية فى ذلك اليوم من الأوصاف والأطوار — نؤمن بما ورد منه فى القرآن ، وعلى لسان نبينا عليه الصلاة والسلام ، بعد التحقق من صحته ، من دون زيادة عليه ، ولا تفنن فى إيراده ، حسبما دل ظاهره ، ونكل أمر كنهه وحقيقته إلى قائله ومنزله سبحانه ، ونجتهد فى أن نربى أنفسنا التربية الدينية التى يرمى إليها الوحى السماوى والوعظ الإلهى ، فنشعر قلوبنا الإيمان والتقوى ، ونتمسك فى حب الخير والفضيلة وتجنب الشر والرذيلة بالسبب الأقوى ، مراقبين فى جميع أحوالنا جلال الله وعظمته ، محاذرين عقوبته وسطوته ، فى يوم تعرض فيه الخلائق ذلك العرض العظيم ، (يوم لا ينفع مال ولا بنون ، إلا من أتى الله بقلب سليم) .

يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

(يومئذ) أى فى ذلك اليوم الذى سبق وصفه . وإنما أعاد ذكر كلمة (يومئذ) المرة بعد المرة خلال سرد أحوال ذلك اليوم — زيادة إحضار له فى أذهان المخاطبين، وتصويرا لهوله فى نفوسهم حتى كأنه ماثل أمام أعينهم .

(تعرضون) أى على ربكم أيها البشر للحساب، وتوفية كل عامل جزاءه من خير وشر . ومن جملة البشر المخاطبين بهذا الخطاب أولئك المعاندون من مشركى مكة الذين ينكرون الرسالة ، ويكذبون بيوم الدين .

وهذه الآية كما قلنا لبيان الحساب والشروع فى أعماله بعد أن استوفت الآيات السابقة ذكر قيام الساعة ، وخراب العالم . وظاهر السياق أن كلا الأمرين — خراب الكون وعرض الخلائق للحساب — يقعان فى يوم واحد، لكن هناك مايدل على أن العرض للحساب ومباشرة أعماله يكون وقته بعد الوقت الذى يحصل فيه خراب الكون بالنفخة الثانية، فهما وقتان أو يومان، فالنفخات ثلاث :

(١) نفخة الفزع الأكبر ، وقد أشير اليها فى آية النمل وهى (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض)

(٢) نفخة الصعق ، وهى التى يكون بها موت الخلائق وخراب الكون ، والوقت خلال هاتين النفختين من يوم القيامة ، وقد تكفلت الآيات السابقة ببيان ما يحصل فى هذا الوقت بضرب من الإيجاز اعتمادا على آيات أخرى أتت على وصفه بأوفى بيان .

(٣) نفخة البعث والنشور ، وقوله تعالى هنا (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) هو بيان لذلك وشروع فى وصف ما يقع بعد تلك النفخة الثالثة من العرض والحساب[1] .

(١) ما ذهب إليه المؤلف : من عد النفخات ثلاثا — هو اختيار ابن العربى ، ونقل الآلوسى عن القاضى عياض أنها أربع ، واختار بعضهم أنها اثنتان ، ثم اختلف هؤلاء فى نفخة الفزع : آلأولى هى أم الثانية ؟

ونقول : إنه لم يتعرض لعد النفخات فى الكتاب الكريم إلا قوله تعالى (٦٨ : الزمر) : (ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) ، وهو قاطع فى وقوع النفخ مرتين : مرة واحدة للصعق ، ومرة واحدة أخرى للبعث . وأمور الآخرة مما لا يثبت بغير دليل قاطع ؛ فلا وجه للقول بنفخة ثالثة هى نفخة الفزع . وقوله تعالى (٨٧ : النمل) : (ويوم ينفخ فى الصور ففزع من فى السموات ومن فى الأرض إلا من شاء الله) — ليس المراد به نفخة ثالثة ولا إحدى النفختين السابقتين ، بل المراد به كل منهما ؛ فإن النفخة الأولى تفزع الناس وتصعقهم ، والنفخة الثانية يقوم الناس بها من قبورهم مذعورين ، فالفزع واقع فى النفختين ، ولذلك عبر فى آية الفزع بالمضارع الذى يدل على تكرر الوقوع ، فهو يقول : "حين ينفخ فى الصور يفزع الناس" . وإنما قال فزع بصيغة الماضى للاشارة إلى تحقق الفزع كلما حصل نفخ فى الصور . والله أعلم . اه : المصحح .

وعلى هذا فقوله تعالى هنا (فأما من أوتى كتابه بيمينه) معناه أمّا من كان من فريق أهل السعادة وقوله فى الآية الآتية ﴿وأمّا من أوتى كتابه بشماله﴾ معناه وأمّا من كان من فريق أهل الشقاوة.

ومن قبيل إعطاء الكتاب بالشمال الدال على الشقاوة والخسران — إعطاء الكتاب من وراء الظهر فى آية ﴿وأمّا من أوتى كتابه وراء ظهره﴾ وللظهر استعمالات مجازية جرى عليها التخاطب بين أهل اللسان كما قلنا فى اليمين والشمال: من ذلك قولهم "لا تجعل حاجتى منك بظهر" أى لا تنسها. وقوله تعالى ﴿فنبذوه وراء ظهورهم﴾ أى أهملوا الميثاق ولم يفوا به.

ولا يخفى أن الوحى إنما هو خطاب الله للعرب مباشرة. ولا يصح أن يسمى خطابا لهم إلا إذا كان واردا على أسلوبهم، ومناحى كلامهم، وإلا فلهم أن يقولوا له صلى الله عليه وسلم ما فهمنا ما تقول، ولا ما تدعونا إليه، ثم وجدوا من ذلك سبيلا إلى الطعن فيه وفى رسالته، ولم ينقل إلينا أنهم طعنوا فى القرآن من جهة عدم فهمه، وغموض أساليبه، فدل هذا على ماقلنا. ونقل الاصمعى عن العرب أنهم يقولون: "فلان عندنا باليمين" أى بالمنزلة الحسنة، و"فلان عندنا بالشمال" إذا خست منزلته. وقال الشاعر:

أبينى: أفى يمنى يديك جعلتنى ... فأفرحَ أم صيَّرتنى بشمالكِ؟

وسئل نفطويه عن قول جرير:

وانى لَعفُّ الفقر مشترك الغِنى ... سريعٌ — إذالم أرض دارى — احتماليا

وباسط خير فيكمو بيمينه ... وقابض شر عنكمو بشماليا

فقال: إن العرب تنسب كل خير لليمين وكل شر إلى الشمال ثم استشهد على ذلك بهذه الآية (فأما من أوتى الخ).

وقول جرير[احماليا] يريد به سفره وتنقله إلى دار أخرى يرضاها، وهو فاعل لقوله [سريع].

أما أن الإنسان يأتى يوم القيامة وأعماله محصاة عليه فى كتاب لا يغادر منها صغيرة ولا كبيرة بحيث يضطر إلى الاعتراف بها — فهذا ما لا ريب فيه. وهو من عقائد الإسلام، لكنا لانكلف معرفة ما إذا كان الكتاب على مثال اللوح أو الورق أو الرق أو غير ذلك، وما إذا كانت الكتابة بمداد وقلم أو بأداة أخرى، وما إذا كان الخط بنقوش وحروف، أو بتجلى الأعمال للعاملين، وظهورها لهم ظهورا بينا كأنها مثبتة فى ضمائرهم، ومنقوشة على ألواح نفوسهم: بحيث لا يقدرون على إنكارها، والتملص من تبعتها، وهو المعنى الذى فهمه بعض المفسرين من قوله تعالى

فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُواْ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾
فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾

(اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا) — كل ذلك لا يكلفه المسلم، وإنما يكلف اعتقاد صدق الخبر إجمالا ، ثم تفويض أمر تفصيله إلى الله تعالى .

وقوله ﴿هاؤم﴾ اسم فعل أمر بمعنى خذوا خطابا للجمع ،وتقول لمفرد المذكر [هاءَ] بفتح الهمزة ، وللمؤنثة [هاءِ] بكسرها ، وللمثنى [هاؤما] وللنسوة [هاؤنّ] والهاء فى ﴿كتابيه﴾ و﴿حسابيه﴾ و﴿ماليه﴾ و ﴿سلطانيه﴾ هاء السكت ، فيرتاح القارئ فى انقطاع نفسه عندها . ولا كذلك إذا وقف على ياء المتكلم مفتوحة ، لا سيما والآيات مراعى فيها الازدواج مع كلمات (راضيه) و (عاليه) و (خاليه) التى ها آتها هاءآت تأنيث لا هاءآت سكت .

وكان حق هاء السكت أن تحذف من الآيات حين الوصل لكنهم يؤثرون النطق بها فيه أيضا ، لكونها ثابتة كتابة فى المصحف الإمام .

ومعنى ﴿ظننت﴾ هنا علمت وتيقنت ، إذ لا يكتفى من المؤمن بالله أن يظن ملاقاته للحساب ظنا ، وإنما يجب عليه أن يعتقده اعتقادا ، ولعل النكتة فى العدول عن التعبير بالعلم إلى التعبير بالظن ، هى إفادة أن مجرد الظن بيوم الحساب كافٍ فى حمل العبد على الإيمان والطاعة ، فما بالك إذا كان يعلمه علما . ومن الظنّ بمعنى العلم قوله تعالى (وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه) .

وقد يقال : كيف تكون [العيشة راضية] ؟ وكيف يصح أن يتصور وقوع الرضا منها ؟ وأجيب بأن (راضية) بمعنى مرضية وأنه اسم مفعول بصيغة اسم الفاعل ، وقالوا إن أكثر من يستعمل ذلك من أحياء العرب سكان الحجاز فيقولون "ماء دافق وسر كاتم" أى مدفوق ومكتوم وقيل هو من باب قولهم " لابن وتامر " يعنى أن صيغته هذه صيغة نسبة من دون إلحاق يائها ؛ فمعنى "لابن" ذو لبن و "تامر" ذو تمر و "دارع" ذو درع و " نابل " ذو نبل . وهذا بدل أن تقول لبنىٌّ وتمرىٌّ ودرعىٌّ ونبلىٌّ . و (راضية) بمعنى ذات رضا أى أن الرضا واقع عليها لا منها .

والمحققون على أن [الراضية] هى العيشة نفسها ، وأن نسبة الرضا إليها مجاز معهود مثله فى كلام العرب من حيث يقصد به المبالغة فى رضا صاحبها وأن الرضا تمكن من نفسه حتى انتقل أثره إلى عيشته نفسها فأصبحت راضية أيضا .

فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

و﴿جنة عالية﴾ أى مرتفعة ارتفاعا حسيًّا ، فيكون ذلك أطيبَ لها وأكرم . أو المراد بعلوّها علوُّ شأنها، وارتفاع قدرها، وتنزّهها عن النقص والسوء، أو عن المُشابه والنظير .

وقوله﴿قطوفها دانية﴾أى لا حائل يحول بين ثمار تلك الجنة و يدى جانيها كارتفاع وشوك مثلا، و إنما هى مهدلة قريبة من متناول الأيدى . و[القطوف] جمع قِطف بكسر القاف : الثمر الذى نضج وحان زمن قطفه،وقيل هو الثمر ساعةَ قُطف .

والقارئ يفهم من سياق قوله ﴿كلوا واشربوا الخ﴾ أن قائلا يقول لهم ذلك يمتن به عليهم ، ويذكرهم بحسن صنيع الله بهم ، أو أنهم أنفسهم يقول بعضهم لبعض ذلك تلذذا وتباهيا . ولا يخفى أن من فى قوله (فأما من أوتى) لفظه واحد لكن المراد به جماعة الناجين ذوى العيشة الراضية .

على أنه ليس المراد بـ(كلوا واشربوا) أمر أهل الجنة بالأكل والشرب فقط ، وإنما هو أسلوب بليغ يقصد به الإباحة للمأمور أن يمرح فى النعيم ويتمتع بما فيه ، ويتناول كل ما تشتهيه نفسه من دون معارض ؛ ألا ترى أنك تعطى ابنك المطيع لك مالا وقصورا ودورا وحدائق ثم تقول له " اذهب يا بنى فكل واشرب وكن قرير العين بما أعطيتك جزاء برك بى ، وطاعتك لى" وأنت لاتريد بأمره بالأكل والشرب إلا إطلاق يده ، وتذكيره بالنعمة ، وطلب دوام شكره عليها ، ويؤيد ذلك قوله بعده ﴿بما أسلفتم فى الأيام الخالية﴾ أى تمتعوا بما أُعطيتم بسبب ما كان منكم فى أيام حياتكم الماضية فى الدنيا . فباء (بما) متعلقة (بكلوا واشربوا) والمعنى تمتعوا وتلذذوا بالنعم الإلهية التى من أجلّها وأعظمها القرب منه تعالى ، ورؤية وجهه الكريم ، وإلا فإن مجرد الأكل والشرب لا يرضى بهما الكريم ثوابا لمن قام بما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه . ولعمرى إن الأكل والشرب فى الجنة من أقل ما يُحتفل به فى مكافأة أهلها ، وإثابتهم على إيمانهم وطاعاتهم وحسن أعمالهم ، وإذا لم ينتظر العاملون من دخول الجنة إلا أن يأكلوا ويشربوا فما أخس جنتهم !! وما أخسر صفقتهم !! فعلى المؤمن المحمدى أن ينتبه لما قلنا ، وينسج على منواله فى فهم ماوردت به النصوص من هذا القبيل ، وتفسيره تفسيرا يلتحم مع ماتقرر فى الشرع وأيدته

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾
وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾

علوم الحقيقة ، وصرح به كبار علماء الإسلام كالغزالى : من أن المؤمن فى الجنة تتغلب فيه الروحانية على الجسمانية ، والنورانية على الظلمانية ، ويكون أكبر حظوظه وقتئذ التمتع بمعانى الأحدية ، والتلذذ بجمالها ، والاستغراق فى سُبحات الذاتية ، والتخشع لجلالها ، وإلا فكيف يتمكن من الطيران ، ويدنو له البعيد ، ويختصر له الزمان ، ويفعل ما يريد . آمنا بالله ، وتقدست أسماء الله . وسيأتى لهذا البحث زيادة تفصيل فى الكلام على الآيات التى تصف نعيم الجنة وأسباب اللذوى فيها من سورة "هل أتى" .

ثم انتقل إلى بيان ما يكون من نصيب الجاحد المكذّب بعد حسابه وعرضه على ربّه . وشأنه على العكس من شأن المؤمن ؛ فهو ممن يؤتى كتابه بشماله ، أى يكون من أهل الشقاء والخسران . وما قلناه فى تفسير (أوتى كتابه بيمينه) يقال فى تفسير ﴿ أوتى كتابه بشماله ﴾ وهذا المكذب لا يلبث إذا علم أنه من فريق الأشقياء أن يحزن ويتحسر ويقول ﴿ ياليتنى لم أوت كتابيه ، ولم أدر ماحسابيه ﴾ كأنه يتمنى ألا يكون من فريق الأشقياء ، أو يتمنى ألا يكون خلق ولا حوسب ، ولا أوتى كتابا ، ولا درى حسابا . على حدّ قوله فى آية أخرى (ياليتنى كنت ترابا) .

والضمير فى ﴿ ياليتها ﴾ يرجع إلى الموتة التى ماتها فى الدنيا ؛ فهو يسخط عليها لكونها لم تكن قاضية عليه إلى الأبد فلا يحيا بعدها فى جهنم هذه الحياة المرة ، التى يموت فيها كل يوم ألف مرة . ويحتمل أن يرجع الضمير إلى الحالة السيئة التى أصبح فيها بعد البعث والحساب ، فهو يتمنى لو أن ما هو فيه من الشقاء والآلام يقضى عليه فيرتاح : يعنى أنه يتمنى الموت فى ذلك الوقت مع أن الموت كان أكره شيء عليه فى الحياة الدنيا .

ثم يتذكر ذلك المعذب من أمر دنياه ورغده فيها ما يزيده حسرة وكآبة فيقول : ﴿ ما أغنى عنى ماليه ﴾ ، فهو ينفى أن يكون ماله قد أغنى عنه شيئا ، أو يستفهم استفهاما ، والقصد منهما كليهما إظهار التأسف واللوعة ، وأن كنوزه التى جمعها فى دار الدنيا ولم يقم بحق الله فيها لم تدفع عنه من أمر الله شيئا .

هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾

﴿ هلك عنى سلطانيه ﴾ السلطان مصدر بمعنى السلطة ونفوذ الأمر كالغفران والرجحان . ومعنى (هلك عنى) غاب عنى وزال عنى . يقول إن ملكه وتسلطه الذى كان فى دار الدنيا ضل عنه وذهب فهو يتحسر ويتحزن ؛ لأنه شغل بملكه وسعة سلطانه عن طاعة ربه ، والعمل لآخرته .

وكان قتادة ينكر أن يكون تفسير الآية ما ذكر ويقول : " أما والله ما كل من دخل النار كان أمير قرية يَجْبيها " يريد أن قوله تعالى (هلك عنى سلطانيه) هو من مقول المكذبين سواء أكانوا سلاطين أم غير سلاطين . وغير السلاطين من سائر الناس لا يمكن أن يقولوا (هلك عنى سلطانيه) بمعنى الملك والتسلط على الرعية ، وإنما السلطان هنا القدرة والطاقة أو الحجة والبينة ، ولا جرم أن كل واحد من فريق أهل الشقاء يقول هذا القول ويتحسر لبطلان حجته التى كان يحتج بها فى الدنيا وعدم نفعها فى درء العذاب عنه فى ذلك اليوم .

وقد يقال : قلما يوجد فى الدنيا من لم يكن له شىء من السلطة على غيره ولو على زوجته وولده كما قال صلى الله عليه وسلم " كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته " ؛ فالمعذب فى الآخرة يتذكر أنه كان ذا سلطة يمكنه أن يستعملها فى الخير والطاعة ورضاء الله عز وجل ، لكنه بالعكس استعملها فى الشر والفساد ؛ فهو يحزن ويتحسر لذلك .

يحكى أن عضد الدولة بن بويه نظم شعراً جاء فيه قوله فى صفة نفسه :

عضد الدولة وابن ركنها   مَلِكُ الأملاك غَلَّاب القدر

ثم أصيب بُعد بشىء من الخبل والوسواس وفساد المزاج ؛ فكان لا ينطلق لسانه إلا بقوله تعالى : "ما أغنى عنى ماليه . هلك عنى سلطانيه" وجعل يردّدها إلى أن مات سنة ٣٧٢ هـ .

وكما يقال لفريق السعداء أصحاب العيشة الراضية من الكلام ما تطيب به أنفسهم ، وتهنأ معه معيشتهم مثل (كلوا واشربوا هنيئا بما أسلفتم فى الأيام الخالية) — يقال لفريق أهل الشقاء من كلم التحقير والتعيير ما يزيد به شقاؤهم ، ويعظم معه بلاؤهم : من ذلك أن يقول قائل على مسمع من أحدهم : ﴿خذوه فغلوه﴾ أى ضعوا فى يديه ورجليه الغُلّ ، والغُل ما يكبّل به الأسير من القيود والسلاسل .

ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾

و﴿الجحيم﴾ أشد أماكن النار تأججا . و﴿صَلُّوه﴾ بفتح الصاد من التصلية وهى حرق الشيء على النار : أى اجعلوه فى الجحيم يصلاها : أى يحترق بها، ويقاسى حرها. و[السلسلة] هنا هى الغُلّ والمراد من كونها سبعين ذراعا أنها طويلة جدا . وعدد [السبعين] يستعمل فى كلام العرب عند إرادة الكثرة ، وعليه قوله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم (إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) . وقوله ﴿فاسلكوه﴾ أى فأدخلوه بين ثناياها وأطوائها . وإنما قال ذلك لأن السلسلة لطولها والتواء بعض أطرافها على بعض تكون كأنها وعاء يُدخل فيه ذلك المعذب . وسلك الشيء فى الشيء أدخله فيه كما تُدخِل اليدَ فى الجيب والخيطَ فى خَرْم الإبرة .

وقدم (الجحيم) على (صلوه) و (فى سلسلة الخ) على (فاسلكوه) لمراعاة الفواصل ، أو لإرادة الحصر : كأن المعنى إنكم أيها المأمورون بعذاب ذلك الجاحد لا يسمح لكم أن توردوه من طبقات النار إلا أشدها حرا ، وأقواها اشتعالا ، ولا أن تعذبوه من آلات العذاب إلا بأعظمها هولا ، وأبينها طولا .

قالوا : و(ثم) فى الآية ليست لإفادة الترتيب فى الزمان، وإنما هى لإفادة التفاوت فى المرتبة فيستفاد منها أنّ المتأخر فى الذكر أهم وأكمل فى نوعه مما قبله .

ولنا أن نقول إن سلكه فى السلسلة هو نفس تغليله فى الغُلّ ، فما القصد من التكرير ؟ وقد يجاب بأنهم أُمروا أولا بسوقه إلى الجحيم مغلولا ، وهناك يعاد تكبيله بكَبْل أطول وأعظم ،وعلى هذا لا يبعد أن يكون قد لوحظ فى (ثم) إفادة التراخى الزمانى : فهو يغل أولا ويقاد إلى الجحيم فتمرّ عليه وهو يقاد إليها مدّة يظنها لطولها سنين ، ثم إذا ورد الجحيم تمرّ عليه مدّة طويلة أيضا قبل أن يكبل بالسلسلة فيحسب أنّ ما هو فيه من العذاب آخر ألوانه ، حتى إذا سلكوه فى تلك السلسلة عرف أن هناك أنواعا منه أشد هولا ، فيشتدّ حزنه ويعظم كربه .

وبعد فإن ما أتى على ذكره كتاب الله من وصف دار النعيم والمنعمين ، ودار العذاب والمعذبين إنما هو تنزل فى الخطاب إلى ما اعتدناه من الأساليب ، وتقريب لحقائق الغيب فى مألوف التراكيب ، وإلا فإنّ إفهامنا ذلك بالكنه والحقيقة متعذر ما دام العالم الأخروى مباينا لعالمنا فى سننه ونواميسه وطبيعته التى ركبها الله فيه ، وكما يستحيل على الكاتب — مهما

إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾

تفنن فى الوصف — أن يفهم غلاما فاقدا إحدى الملذوذات الجسدية حقيقة تلك اللذة قبل بلوغه زمنها ، كذلك يستحيل علينا أن نفهم حقيقة نعيم الدار الآخرة وعذابها قبل بلوغنا زمنهما .

ثم إن عجزنا عن تعقل الجنة والنار بكنههما وحقيقتهما لا يستلزم انتفاء وجودهما ما دام الوارد بشأنهما غير محال عقلا ، إذ كم من أمر ثابت الوجود فى دنيانا هذه ، بل يكون علمنا به بديهيا أحيانا — لا نقدر أن نتعقله بكنهه ، وإنما نتعقله بأثره الصادر عنه والدال عليه ، لا نمثل لك بالكهربائية والأثير والمادّة وأجزائها الفردة التي تتركب منها مما لا يزال مجهول الحقيقة فى العلم الطبيعى ، وإنما نحيلك على نفسك التى بين جنبيك ؛ فإنك بالطبع تعترف بأنها موجودة ، لكنك تعجز وتفحم إذا قلنا لك صفها لنا وصفا يوصلنا إلى كنه أمرها ، وحقيقة سرها ، وكل ما تقدر عليه من التعريف بها ، هو قولك إنى أريد وأفعل ، وأهم وأعمل ، وأنسى وأتذكر ، وأفكر وأتصوّر ، وكل ذلك لايكون إلا بقوّة موجودة بالفعل فى بدنى ، تصدر عنها تلك الآثار الموجودة ، إذ لا يصدر موجود عن معدوم ، ولا سيما أن تلك القوّة إذا زايلت بدنى لم تعد تلك الآثار تصدر عنها ، مع أن البدن سالم لم ينقص منه شىء ، تأمل يا أخى هذا ، ثم اعترف معى بأن للدّين مجهولات كما أن للعلم مجهولات ، وأنه ليس من الإنصاف أن نطأطئ رءوسنا بين يدى الثانية ثم نشمخ بأنوفنا أمام الأولى .

قوله ﴿إنه كان لا يؤمن بالله﴾ الخ استئناف واقع فى جواب سؤال مقدّر : كأن قائلا يقول : ولم استحق كل هذا العذاب يا رب ؟ قال : (إنه كان لا يؤمن... ولا يحض ...) الخ .

والإيمان بالله أصل فى سلامة العقائد ، كما أن العطف على المساكين ومواساتهم بفضل المال أصل فى سلامة الأخلاق ، ومن ثم قرن الله بين الأمرين فى هذه الآية ، وقال إنّ السبب فى تعذيب ذلك المعذب هو كفره وشحه : خلو نفسه من التصديق والإيمان ، وخلو قلبه من الرحمة والحنان ، وهذا كما قرن الكتابُ مرارا بين الصلاة والزكاة ؛ فإن الصلاة من أكبر آيات الإيمان ، كما أن الزكاة من أكبر آيات الرحمة وحب الإحسان .

وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾

ولم يعذب الله هذا المعذب بتركه إطعام المساكين، بل بتركه حض الآخرين على إطعامهم؛ فانظر كيف إن الإسلام لم يكتفِ من المؤمنين بأن يحبوا المساكين ، ويعطفوا عليهم، ويحسنوا إليهم فقط، بل هو يأمرهم بأن يأمروا غيرهم أيضا ، ويحضوا المتقاعدين عن ذلك حضا .

ومن مظاهر الحض وصوره أن يدعو المسلم إخوانه المؤمنين إليه ، ويكلفهم مساعدته فيما يبغيه : من العناية بالفقراء ، وإزاحة عللهم ، وتيسير أسباب المعيشة عليهم ، وتمهيد طرق الحياة الطيبة بين أيديهم ؛ فإن الكتاب إن كان اقتصر من ضروب العناية بالفقراء على ذكر الطعام وحده، فإنما ذكره كنموذج ومثال، وإلا فالإسلام يأمر بإيوائهم وإلباسهم ، ووقاية لهم من أذى البرد ، ويأمر بتعليمهم وإرشادهم إلى ما به صلاح دينهم ودنياهم من علم وصناعة ، يدلك على هذا ما قاله المفسرون فى قوله تعالى : (وأما السائل فلا تنهر) : إنّ السائل يشمل سائل العلم المحتاجَ إلى المعرفة كما يشمل سائل الصدقة ، بل خصه بعضهم بطالب العلم وقال : "أما إنه ليس بالسائل المستجدى ولكن طالب العلم إذا جاءك فلا تنهره" .

وإذا دعا المؤمن إخوانه المؤمنين إلى ما قلنا من التعاون فى شأن الفقراء والمساكين على الوجه الذى يكون فيه سِدادٌ من عوزِ أبدانهم ونفوسهم — كانت دعوته هذه هى الحض الذى أوعد الكتاب على تركه هذا الوعيد الشديد .

ثم إذا دعا وأجابه إخوانه وعملوا بإشارته من التزام العناية بالفقراء آنا فآنا — كانت عنايتهم هذه واجتماعهم عليها هى مايسميه أهل هذا العصر "الجمعيات الخيرية" و"جمعيات البر والإحسان" و "جمعيات التعاون" . فإذا قلنا لإخواننا المسلمين : إن كتابنا السماوى يرصد لنا الوعيد على تركنا تأليف "جمعيات زكاة" يمكننا بواسطتها انتشال إخوتنا الفقراء من مهاوى التعاسات — لم نرد أن القرآن وضع لذلك قانونا سرد فيه الأعمال مادة مادة ، وإنما أردنا أنه رمز وأشار ، وأمر بالقياس والاعتبار ، وأن نراعى فى أعمالنا ومساعينا اختلاف الأعصار والأمصار .

ولقد لحنت لكم لكيما تفهموا   واللحن يفهمه ذوو الألباب

فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

وإن الناقص الإيمان الذى كان من آيات نقص إيمانه قسوتُه على المساكين، وإهمال أمرهم، وتركه الحض على مواساتهم وسدّ خلتهم — لجدير بمقت الله وغضبه . وأن تسوء والعياذ بالله عاقبته ، فلا يكون له فى النشأة الأخرى ﴿حميم﴾ أى قريب أو صديق يهتم بأمره ، أو يدفع عنه ، أو يغيثه مما هو فيه من البلاء والشقاء ، ليكون ذلك جزاء له من مثل عمله : تخلى عن إخوانه الفقراء فى دنياه ، فتخلى إخوانه عنه فى آخرته ، تَصَامّ عن سماع شكوى أولئك الفقراء فى هذا اليوم فتصامّ أخلاؤه عن شكواه يوم القيامة ، منعهم نُثارة خزائنه ، وفُتات موائده فى دنياه ، فحرمه الله شهى الطعام فى آخرته ، فلم يكن له ﴿طعام﴾ يومئذ ﴿إلا من غسلين﴾ قال قتاده "هو شر الطعام وأخبثه وأبشعه" ولعله إنما سمى بذلك من الغَسل لأن شر الطعام وأقذره هو البقية التى تعلق فى صحاف الموائد بعد الفراغ من أكل ما كان فيها ، فَتُسْلَتُ تلك الفضلة ، وتغسل منها الصحاف، فهذه الفضلات الخبيثة التى تشمئز منها النفوس الكريمة ، هى التى يستحق أن يُطْعَمَها ذلك الباخل على الفقراء بالطعام ، حتى اضطرهم الجوع إلى ارتكاب الشرور والآثام . وطعامه هذا ﴿لا يأكله إلا الخاطئون﴾ المذنبون قساة القلوب أمثاله . [والخاطئ] متعمد الخطيئة وهى الإثم والذنب بخلاف [المخطئ] فأنه من الخطأ وليس الخطأ بإثم ولا ذنب ، وإنما هو ما عفا الله عنه ، وقد مرت الإشارة إلى الفرق بينهما .

و (طعام) فى قوله (ولا يحض على طعام المسكين) اسم مصدر من قولك أطعمه إطعاما وطعاما ، كما يقال أعطاه إعطاء وعطاء . أما (طعام) فى قوله (ولا طعام إلا من غسلين) فهو نفس ما يؤكل ، وإنما قلنا إن (طعام المسكين) بمعنى إطعام لأن الحض إنما يكون على الفعل لا على الاسم ، فتقول " أحضك ياهذا على إطعام المسكين " ولا تقول "أحضك على رغيف المسكين" إلا على تقدير مضاف ، والأصل عدم التقدير .

ومن لطيف آداب العرب أنهم كانوا يستبشعون الحدة والنزق وشكاسة الأخلاق إلا فى الحض على الاستعداد للضيوف وتهيئة الطعام للعُفاة والمساكين ، فإن الحدة وشراسة الأخلاق تكون إذ ذاك محمودة ، ومن ذلك قول شاعرهم :

إذا نزل الأضياف كان عَزوّرا ... على الحى حتى تستقل مراجله

الخطأ = يدور بعد
الخطيئة = تعمد
الفاعل
١ مخطئ
٢ خاطئ

فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴿٣٩﴾

يقول : إن ذلك السيد يكون وقت نزول الأضياف به غضوبا شرسا سيئ الأخلاق على رجال الحى : يحضهم على تهيئة ما يلزم لهؤلاء الضيفان ومداركة أسباب راحتهم ، وتعجيل الطعام إليهم ، لئلا يكونوا جياعا فيمنعهم الحياء عن طلبه ، ولا يزال ذلك السيد فى غضبه وحدّته حتى تستقل قدوره ، أى تعلو ، وتقوم على مواقد النيران ، وهناك يهدأ باله ، ويسكن غضبه .

ومما يروى عن السلف من الرقائق والتأدب بآداب القرآن ، أن أبا الدرداء الصحابىَّ الجليلَ رضى الله عنه كان يحض امرأته على الاستكثار من مرق الطعام ليوسع به على المساكين ، ويقول لها : "آمنا بالله فخلعنا نصف السلسلة الطويلة التى قال الله إنها معدة للذين لا يؤمنون بالله العظيم ، أفلا نخلع نصفها الآخر بالحض على طعام هؤلىء المساكين ، فنخرج من عداد الذين لا يحضون على طعام المسكين ؟ ؟"

ثم شرع فى تقريع مشركى العرب على تكذيبهم به صلى الله عليه وسلم ، كأنه يقول : أخبرنا كم أولا خبر الأمم القديمة التى كذبت بالحاقة ويوم العرض والحساب فأهلكناها وأذقناها وبال أمرها ثم قفَّينا على ذلك بخبر يوم الحساب نفسه ، ووصف هوله وما يكون فيه لفريق الأبرار والفجار من النعيم والعذاب المقيم ، ويوشك أن يكون كل ما قلناه غير بالغ مبلغه فى قلوبكم ؛ ولا مؤثر أثره فى نفوسكم ؛ عنادا منكم لنبيكم ؛ ولجاجا فى مقاومته وتكذيبه ، قائلين عنه تارة إنه شاعر ، وطورا إن قوله قول كاهن ﴿فلا أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون إنه لقول رسول كريم الخ﴾ .

وقد مر فى (ن . والقلم) بيان الحكمة فى أن الله تعالى يقسم ببعض مخلوقاته ، ونسمعه هنا يقول جل وعز : " فلا أقسم " فكيف ذلك ؟ يقول بعضهم : إن المنفى [بلا] ليس القسم وإنما المنفى محذوف مفهوم مما سبق : تقديره : (فلا) معنى لتكذيبكم بالقرآن ، ولا الامر ما تقولونه عن محمد صلى الله عليه وسلم إنه شاعر أو كاهن ، ثم استأنف فقال : (أقسم بما تبصرون ومالا تبصرون) . وعلى هذا يكون أفضل للقارئ أن يقف على (فلا) وقفة خفيفة ليشعر

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾

السامع بما ذكرنا من المعنى . وذهب المحققون إلى أن (لا) نافية للقسم ، وأنه تعالى يخبرنا بأنه لا يحلف بما ذكر : كأنه يقول : إن القضية المتنازع فيها وهى صدق محمد صلى الله عليه وسلم فيما ادعى من النبوة والوحى — هى من الظهور والثبوت بحيث لا تحتاج إلى الحلف عليها . وهذا الأسلوب مألوف حتى فى تخاطب أهل زماننا ؛ فيقول أحدهم للآخر فى أمر مهم يريد أن يثبته له : لاحاجة للحلف أو لالزوم للحلف ، ثم يستأنف فيقول : إن الأمر كيت وكيت .

أما قوله (ماتبصرون وما لا تبصرون) فالأقرب أن يكون المراد به ما ترون ويقع تحت أبصاركم من عالم الشهادة، وما لا ترون ولا يقع تحت أبصاركم من عالم الغيب ، فهو تحقيق لعالم الغيب، وتعظيم لشأنه ، وفى القسم بالأمرين معا إشارة إلى أن كل ما خلق الله وما لم يخلق ، مما نرى وما لا نرى، هو عظيم الخطر جليل الشأن ، حقيق بالتأمل فيه ، وإذا كان المتكلم يدخل فى عموم كلامه كما ذهب إليه بعض الأصوليين، تكون الذات الأحدية داخلة فى عموم ما لانبصره من عالم الغيب ، ويكون تعالى قد أقسم لنا بذاته العلية على رسالة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وصدق دعواه .

﴿ إنه ﴾ أى القرآن ﴿ لقول رسول ﴾ أى قول محمد صلى الله عليه وسلم ، ومعنى أنه قوله أنه قاله بلسانه لكم مبلغا ، بعد أن ألقى فى رُوعه وحيا ، وإلا فإن القرآن كلام الله . وفى إضافة القول إليه صلى الله عليه وسلم بعنوان أنه رسول لا باسمه العلمى وهو محمد — ما يدفع الشبهة المذكورة ، وذلك لأن قول الرسول هو فى الواقع ونفس الأمر قول صادر عن مرسله ، وإنما الرسول مبلغ له .

وقد نفى الكتاب أن يكون القرآن [قول شاعر] أو [قول كاهن] .

و[الشاعر] معروف . أما [الكاهن] فهو الذى يخبر عن الكوائن فى مستقبل الزمان ، ويدعى معرفة الأسرار ، ومطالعة الغيب ، ورجل مثل هذا — اعتاد أن يطيل الفكر والاستغراق ،

وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾

ويكثر التطلع إلى ما وراء عالم الحس — قد تبرق له بارقة خيال من ذلك العالم، فيقرن بها أمثالها ويقيس عليها أشباهها، ثم يخبر بها، فيُرى أحيانا فى أخباره وميضٌ من الحق، ومسحة من الصدق. هؤلاء الكهان وُجِدوا فى بلاد العرب قبل البعثة، ولكن كانت أخلاقهم وأطوارهم وهموم أنفسهم ليست على شىء من الطهارة والنزاهة، وحب الخير وممارسة الفضيلة وإمحاض العبادة، وتبليغ الخلق وحيا قامت التجربة على نفعه فى تحسين حال الجماعات البشرية، وتأثيره فى نقلهم من طور الهمجية إلى أعلى أطوار المدنية، وإنما كل ما يصدر عن أحد أولئك الكهان سجعات ظاهرة الركاكة والتعسف، تتضمن معانى بادية التصنع والتكلف، فما أبين بطلان ما كان يقوله المشركون من أنه صلى الله عليه وسلم كاهن، وما أوهن الاحتجاج به.

أمّا قولهم عنه إنه شاعر فبطلانه أظهر، وبهتانهم فيه أكبر؛ لأن أخلاق الشعراء وأساليبهم فى كلامهم، ومراميهم فى حياتهم، تنم عنها أشعارهم وقصائدهم ومعلقاتهم، فلا غرو أن يوبخ الكتاب أولئك الزاعمين هذه المزاعم فيه صلى الله عليه وسلم، ويقول لهم: ﴿قليلا ما تؤمنون ... قليلا ما تذكرون﴾ أى أنتم قوم أصحاب عناد وباطل: ماتت عاطفة الفكر والذكر من قلوبكم، فلا تؤمنون بالله، ولا تحدثون فى أنفسكم ذكرى تؤدى بكم إلى الاعتبار والاتعاظ. فقوله (قليلا) و (قليلا) لإفادة نفى أصل الإيمان، ونفى أصل التذكر، وكثيرا ما تكون [القلة] فى كلام العرب بمعنى العدم المحض. وفى الحديث "إنه كان يُقِل اللغو" أى لا يلغو صلى الله عليه وسلم أصلا. وشاهد ذلك قولهم "قَلَّ رجلٌ يقول ذلك إلا زيدا" أى ما رجل يقوله إلا هو، فلو لم تكن [قل] بمعنى النفى المحض ما صح الاستثناء منها، فإن الاستثناء معيار العموم كما تقرر فى علم الأصول.

وإذا لم يكن القرآن قول شاعر ولا قول كاهن، فهو ﴿تنزيل من رب العالمين﴾ أى وحى منه تعالى أُنزل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم فبلغكم إياه بقوله ولسانه. وأشار بقوله (رب العالمين) إلى أن الإله الذى ربى البشر، وأمدّهم بضروب عنايته، وغذاهم بصنوف نعمته — حقيق بأن يتعهدهم بوحيه على لسان رسله؛ كى يبلغوا بهم غاية كمالهم، ومحاج سعادتهم.

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا
مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤٧﴾

﴿ولو تقول علينا﴾ التقول تكلف القول ، ويراد به التكذُّب والافتراء ؛ لأن القول الذى يكذب به قائله يتكلف له ، ويتصنع فى إيراده .

و﴿الأقاويل﴾ جمع أقوال، وأقوال جمع قول ، فهى جمع الجمع ، وغلبّ استعمالها فى الأقوال الكاذبة التى لا أصل لها . وجعلها بعضهم جمع [أقوولة] وإن كانت [أقوولة] لم تستعمل وهـذه الصيغة أعنى [أفعولة] يراد بها صغر مسماها وحقارته غالبا ، مثل أضحوكة وأكذوبة وأسطورة وأعجوبة وأنشودة ، جمعها أضاحيك وأكاذيب وأساطير وأعاجيب وأناشيد ، ومثلها [أقاويل] .

و[اليمين] اليد اليمنى . ويكون الأخذ بيمينه صلى الله عليه وسلم كناية عن التمكن منه ، والقدرة عليه ؛ فإن من يضبط إنسانا من يده اليمنى التى هى آلة بطشه يكون قادرا على منعه من الحركة والصّيال . أو المراد باليمين القوة مرادا بها قوة الله وقدرته تعالى ويكون معنى ﴿لأخذنا منه باليمين﴾ لانتقمنا منه بقوتنا وقدرتنا . و﴿الوتين﴾ قال ابن سِيدَهْ " هو عرق لاصق بالقلب من باطنه أجمع ، يسقى العروق كلها الدم ، ويسقى اللحم ، وهونهر الجسد" وقال غيره "هو نياط القلب وهو حبل الوريد " إذا قطع مات صاحبه " فمعنى ﴿لقطعنا منه الوتين﴾ لعاجلناه بالعقوبة ولم ندعه حيا . وخص الوتين بالذكر من بين سائر أعضاء الجسد وعروقه لأن طريقة الإماتة بقطعه أسرع الطرق وأشدها إجهازا على الحياة .

وقوله ﴿ حاجزين ﴾ أى مانعين وحامين وحائلين بيننا وبين ما نريد منه . وكان الظاهر أن يقول : فما منكم من أحد أيها الناس عنه حاجزا ومانعا ، لأنه صفة لأحد وهو مفرد . لكن لما كانت (من أحد) نكرة مستغرقة فى العموم صارت بمعنى الجمع فوصفت بصفته .

ومعنى الآية أنه تعالى يقول فى تبرئته نبيه صلى الله عليه وسلم مما رماه به المشركون ، وفى دحض دعواهم أنه ــ وحاشاه ــ كذاب مفتر على الله ــ : لو تعمد محمد كذبا علينا لكنا قادرين على أن نتمكن منه فضل تمكن ، ولَكُنا أهلكناه وقضينا عليه من وقته ، وما وجد أحد فى البشر يقدر على أن يحول بيننا وبين إنفاذ مشيئتنا فيه .

لا يقال : إنه قام فى أزمنة التاريخ المختلفة متنبئون لم يهلكهم الله ، بل بقيت أكاذيبهم ، وانتشرت أضاليلهم — لأنا نقول : إنه قلما ظهر متنبئ كذاب إلا سلط الله عليه من قتله وأخمد أنفاسه ، كما فُعل فى مسيلمة الكذاب وأضرابه . وإن بقيت لأحدهم دعوة فى الأرض فإنما تبقى محصورة فى جهة منها وبين أقوام قليلين تعوزهم الأدلة والبراهين على صحة ما أتى به متنبؤهم لتكون مقبولة فى نفوس ذوى العقول السليمة . أما " بوذه " و "كنفوشيوس" و "زرادشت" الذين انتشرت تعاليمهم فى معظم آسيا ، واتبعهم نيف وسبعمائة مليون من أهلها ، أى نحو نصف العـالم الإنسانى — فقد يكونون أنبياء صادقين ، ولم يرد فى الشرع نص صريح ينفى نبوتهم . وإذا كان فى أديانهم المنسوبة إليهم اليوم ما هو ظاهر الوضع والبطلان فيكون ممـا دس عليهم ، واخترعته مخيلات أتباعهم ، ولم تسلم من مثله الأديان السماوية المشهورة .

ويمكن أن يقال : ليس معنى (أخذنا منه باليمين . وقطعنا منه الوتين) تعجيل العقوبة له صلى الله عليه وسلم والقضاء على حياته ، وإنما المراد أنه لو كان كاذبا لكنا عجلنا له عقوبة أمثاله من المتنبئين الكاذبين ؛ فنُميت ذكره ، ونطفئ دعوته ، ونلاشى ما أتى به . ولاريب أن معاجلته بالعقوبة على هذه الصورة هو قضاء عليه ، وإهلاك له ، لكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كذابا ولا مفتاتا على ربه ؛ فمن أجل ذلك لم يضع ذكره بل رفعه ، ولم يحرج صدره بل شرحه ، ولم يمت دعوته بل أحياها ، ولم يلاش أمته بل نمّـاها ، حتى كان لها من حظ الانتشار والعزة ما لم يكن لسواها .

إن دعوة رجل واحد يهتف بها فى منقطع العمران ، فيلبيها ملايين وملايين من البشر ، ويكون من أثرها قيام دين كريم ، ونهوض ملك عظيم ، ونشوء حضارة لم تزل معالمهـا ناطقة بمجدها إلى اليوم — دعوةٌ هـذا شأنها لا يتصور فى العقل أن تكون كاذبة مفتراة على الله . ولو كانت كاذبة كما يقولون ما استتب لدعوة سماوية غيرها أن تُثبت وجودها ، وتبرهن على صدقها ؛ إذ لم نر لدعوة أخرى سواها من الأثر فى تربية الأمم ، ونشر العلم ، والحض على العمل الصالح ، والتزام العـدل المطلق — ما رأيناه لدعوة محمد عليه الصلاة والسلام فهـل يتمخض البُطْل عن نتاج خير من نتاج الحق؟ ويثمر الكذب من الثمر الطيب ما لا يثمره الصدق؟؟

أما إذا قيل إنه قد قامت فى العصور المتأخرة مدنيات عظيمة فى قوتها ، عظيمة فى أعمالها ، عظيمة فى آثارها ، لم تقم بعنوان إسلامى ، ولا هى ممـا أُسس على الدعوة المحمدية ، وقد قضت هذه المدنيات الحديثة على الجماعات الإسلامية ومدنياتها المتوارثة حتى غشاها من أمرها ما غشى فإنى أقول : لو قام اليـوم من تحت الأرض قائم كريم ، ثم طاف معـالم المدنيات الإسلامية

وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾

ومساكن الأمم المنسوبة إلى الإسلام — لأنكرها كلها ، اللهم إلا كلمة الشهادة ، ومراسم العبادة ولو طاف هو نفسه المدنيات الحديثة ، ومساكن أهلها — لاعترف بها كلها ، اللهم إلا ما ظهر بُطْله ، واستبانَ فحشه ، ويفكر أهله أنفسهم فى النزوع عنه ، والتخلص منه .

ولو هبط هابط من فوق السماء ، ثم طاف مدنيات الأمم المنسوبة إليه ، وتأمل فى أصول حياتها المادية الجديدة المؤسسة على الحرص وادخار المال والتمتع بلذائذ العيش — لأنكر كل شىء ينسب إليه إلا الاسم ، وما عرف من تعاليمه وشرائعه التى كان أتى بها إلا الرسم .

جُعِل ختام السورة كنتيجة للكلام السابق ، مرتبطة به أشدّ ارتباط ، فهو يقول : إذا ثبت أنّ القرآن وحى من الله ، لم يتقوّله محمد صلى الله عليه وسلم على ربه — كان هذا القرآن تذكرة وعظة ينتفع بها المتقون ؛ فضمير ﴿وإنه﴾ يرجع إلى القرآن الذى إن لم يتقدّم له ذكر صريح فقد تقدّم ما يعينه ، ويومئ إليه ، فإنّ قوله تعالى : (ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل) لم يرد به إلا القرآن الذى كان يزعم المشركون أنه أقاويل وأساطير ، والله نفى ذلك واحتج على كذبهم ، وصدّق القرآن .

وقوله ﴿للمتقين﴾ يريد بهم أولئك الذين صفت نفوسهم عن كدورات الأوهام ، وخلصت من شوائب الجمود والتقليد ، ومالت بفطرتها إلى قبول الحق والإذعان له ، تتقى بذلك سخط خالقها وتحذر عقابه . أمثال هؤلاء هم الذين استعدّت نفوسهم لقبول القرآن والاستهداء به ، أما أولئك المكذبون الجامدون على ما ورثوه من آبائهم ، فإن الله توعدهم بقوله : ﴿وإنا لنعلم أن منكم مكذبين﴾ ، وليس المراد به إفادة أنه تعالى يعلم بالمكذبين فقط ، بل المراد أنه تعالى محيط بهم ، راصد لهم ، غير تارك عقابهم ، فاستعمال العلم بهذا المعنى كاستعمال المعرفة : يقال ”أنا أعرف المحسن منكم والمسىء“ أى لا يخفى على ذلك منكم ، ولا أغفل عن مقابلة كل بما يستحقه ، ومنه قول ابن الفارض ”روحى فداك عرفت أم لم تعرف“ أى كافيتنى بالحسنى أم لم تكافنى .

وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

فهؤلاء المكذبون الذين يعلمهم الله وهو من ورائهم ، كيف يكون حالهم فى مستقبل الأيام : فى الدنيا إذا أظهر الله نبيه ، ونصر حزبه ، وفى الآخرة إذا أزيح الستار ، و بطلت الأعذار ؟ لا جرم أن تكذيبهم سيكون عليهم حسرة ، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ و إنه لحسرة على الكافرين ﴾ فضمير (إنه) يرجع إلى التكذيب المفهوم من قوله (المكذبين) ، ومراده (بالكافرين) نفس المكذبين المذكورين قبله ، وكان الظاهر الإضمار أى أن يقول "و إنه لحسرة عليهم " ، لكنه أتى بالاسم الظاهر ليتناول به وصفا جديدا لهؤلاء المكذبين وهو كونهم كافرين ، ويحتمل أن يرجع ضمير (و إنه) إلى القرآن ، أى إنّ القرآن سيكون حسرة على المكذبين : فى الدنيا إذا ظهرت تعاليمه ، وانتشر فى الخافقين نوره ، أو فى الآخرة إذا رأوا نجاة المصدّقين به ، المتمسكين بحبله . وعود ضمير (و إنه لحسرة) على القرآن أنسب ، وبذلك ينتظم شمله مع ضمير (و إنه لتذكرة) الذى قبله ، وضمير (و إنه لحق اليقين) الذى بعده ، فإنهما للقرآن .

ومعنى ﴿و إنه لحق اليقين﴾ أنّ القرآن هو اليقين أى الحق الثابت الذى لا شبهة فيه ولا ريب . والجملة من مقوله تعالى ، يثبت بمضمونها قلب نبيه صلى الله عليه وسلم ، فلا يلين فى الدعوة ، ولا يضعف عزمه لتكذيب أولئك المكذبين ، ورميهم له بمختلِف التهم ومختلَق الدعاوى .

ومعنى ﴿فسبح باسم ربك العظيم﴾ إذا كان من عاقبة المكذبين ما ستعلمه يا محمد وسيعلمونه هم ، وكان القرآن وحيا من الله يقينا — لم يبق إلا ثباتك فى أمرك ، ومضيك فى ما نُدبت له من تبليغ رسالتك ، واستعن على مهمتك هذه بتسبيح ربك ، والشكر له على أن اختصك بكرامة النبوّة ، وعلو المرتبة ، فهو ربك الذى حاطك بعنايته ، والعظيم الذى يصغر كل شىء إذا قيس بعظمته ، وهو تعالى وحده الذى يجب أن تسبحه وتشكره ، وترجوه وتخافه ، ودع عنك أولئك المكذبين جانبا .

و [الاسم] هو ما يعرف به المسمى ويتميز عن نظائره ، واسم الله وأسماؤه صفاته التى عرفناه معشر البشر بها ، و إلا فإن المدارك تعجز دون الوصول إلى كنه ذاته [فالتسبيح باسم الرب] الذى أمر الله نبيه به هو عبارة عن تنزيه صفاته تعالى أن تكون مشابهة لصفات المخلوقين .

أو تقول : إن المراد [باسم الرب] هو الكلمات الدالة على ذاته كالله ، وصفاته كالرحمن والرحيم ، فإذا أمر الله تعالى بتنزيه هذه الكلمات ، وتمجيد شأنها — كان ذلك مستلزما لتنزيه الذات المدلول بها عليها ، أو المراد بتنزيه أسماء الله تنزيهها عن أن تطلق أو تستعمل فى مسميات أخر كما يفعل المشركون من تسمية [اللات] فإنها مؤنث [الله] سموا بها إلاهة من آلهتهم ، وسموا إلاهة أخرى [العزى] تأنيث الأعز ، والأعز والعزيز من صفاته أو أسمائه تعالى ؛ فمعنى قوله (سبح باسم ربك) نزهه فلا تسم به إلا إياه سبحانه وتقدس .

وفعل [سَبَّح] يتعدى بنفسه فيقال (سبح اسم ربك) ، وبالباء كما فى آيتنا هذه ، ومثله "ألقى الكتاب من يده" و"ألقى به من يده" "وأخذ الشيء وأخذ بالشيء"، قال تعالى : (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال أيضا (وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه) .